ذكرى الشاعر الثائر

معروف الرصافي

الأستاذ حمدي الحسيني

السيد معروف الرصافي رحمه الله شاعر عربي أصيل ، ولد في العراق ونشأ فيه ، اشتغل بالتعليم في العراق والآستانة والقدس ودخل مجلس النواب العثماني نائبا عن متصرفيه — المنتفك — من أعمال العراق . عاصر عبد الحميد واكتوى مع الشعوب العثمانية عامة بنار مظالمه ، فتألم اشد وقع تلك المظالم ولكنه لم يغط على ألم شأن المستضعفين من الناس الذين يقع الظلم على رؤوسهم فيطأطئون تحته صاغرين ، وينصب الأذى على نفوسهم فيحتملون الأذى خاضعين ، بل ثار على الظلم ثورة عنيفة صاحبة وقاوم الأذى بمقاومة قوية ساخرة . وقد شهد الانقلاب العثماني وسقوط الجبار عن العرش ، فثارت الحمية في نفسه وصاح في وجه الجبار بصوت متهدج جمهوري يحمل كل عواطف إرواء الغليل وشفاء الصدر ، ورأى طلعة الدستور البهية مشرقة على الإمبراطورية العثمانية فكبر وهلل ورحب بالدستور ترحيب الصب المستهام وتغنى بمحاسنه بأعذب الأنغام

خالط الاتحاديين وهم في منصة الحكم وفي ظل الدستور فأطرى ومدح ، وعندما جنحوا عن المحجة صاح في وجوههم غاضبا مؤنبا عاتبا معنفا . ورأى توثب العرب للنهضة وتحفزهم للنضال في سبيل الحرية فأحس بإحساسهم ومشى في صفوفهم يثير في نفوسهم ما كمن من القوة ويحرك في عواطفهم ما خمد من الانطلاق والحركة . واتصل بالملك العربي بالشام والعراق وبالحركات الوطنية في العراق وسوريا وفلسطين فابتأس وتنهد وبكى وتبسم

والرصافي كما عرفناه في القدس بالمعاشرة ، وفي شعره بالسماع والمطالعة ، عميق الشعور حاد الذكاء مرهف الحس حائر النفس قلق المواطف مكبوت الرغبات ، وهو على علمه وفضله وعلو كعبه في اللغة والأدب وعلى سبقه في الحركة العربية القومية وجليل أثره في ميدان الكفاح في سبيل الحرية والاستقلال كان يعيش في ضنك من الحياة وبؤس في العيش ولكن هذا الضنك وهذا البؤس لم يؤثرا على عزة نفسه ولم يسلباه نفير الكرامة وعلو الهمة . وكثيرا ما كان يتمثل بهذا البيت : —

تعود كل بؤسها ونعيمها وعشنا على بؤس ولم نتعود

وكل ما فعل الفقر في نفس الرصافي هو الكبت : فقد كبت الفقر (وإن شئت فقل الشعور بالنقص) غريزة التغلب والسيطرة فانكبتت هذه الغريزة القوية العنيفة فأفضت عليه مضجعه وزلزلت أركان حياته ، حتى هدته المعرفة إلى ما تعانيه الأمة العربية من آلام القهر والخضوع ، فرأى في قهرها صورة لسلطته المقهورة فدفعه هذا التشابه إلى التفكير في الغير بدل التفكير في الذات تخفيفا لألم الكبت . فراح الرصافي بعد هذا الانتقال النفسي يصف ما تلاقي الأمة العربية من ألم الخضوع لظلم المستبدين من الحكام ، ومرارة الانقياد لسلطان الجهل وحكم العادات الضارة والتقاليد السقيمة . وهو بهذا إنما يصور رغبته في الحرية الاجتماعية والسياسية ، ويضع خطط الوصول إلى هذه الحرية لتطبقها الأمة في نضالها . ومن حسن حظ الأمم المستضعفة أن يكون بين أفرادها امثال الرصافي ممن كبتت فيهم رغبة الحرية ووهبهم الله قوة البيان سلاحا يقتلون به عدو الأمة وعدوهم . فهؤلاء الكبوتون في الأمم الخاضعة المقهورة

وعمق وزال عن جميع ما ذكرته وظهر عليه الحق بالقول والعمل ولولا التطويل لذكرت ذلك مفصلا (١) هذا ما يقوله ابن سبعين وقد تناول بالنقد اللاذع بل بالتحقير الشنيع ابن سينا والغزالي وابن رشد

إلى هنا نقف لنعود في القريب العاجل لنعرض لقراء الرسالة الكرام صفحات رائعة لأثر فلسفة الفارابي في العقل البشري فنستعرض سياحة الفارابي في أوربا ونشهد الموجات العنيفة الثورة التي صدمت هذا الفيلسوف فنستعرض الفارابي تحت مطارق خصومه في الشرق والغرب فإلى اللقاء

بغداد ضياء الرفيعي

---

١ — فصول الحكماء
٢ — المعلم الثاني
٣ — مجموعة ماسنيون

كالحرارة فى الأجسام والنور فى الظلام والحد القاطع فى شفرة الحسام ، احس الرصافى بالظلم الواقع على الأمة العربية من قبل السلطان عبد الحميد وحكومته المؤامة من أوباش الناس ، ورأى الخضوع لهذا الظلم باديا على الأمة العربية بدواشائنا مميتا وهى الأمة العريقة فى الحرية والاستقلال والعزة والكرامة فتأذى بهذا الظلم وبرم بهذا الخضوع فنظم قصيدة سماها « تنبيه النيام » وبدأها بالتساؤل عن الوقت الذى تنتبه فيه الأمة العربية فتدفع عن نفسها الأذى وتسترجع حقها المسلوب ويبدى تعجبه لصبرها على الضيم وبقائها على الظلم .

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ومنهم جنودها

ولكن ما قيمة التألم فى هذا المرض . لخير منه توجيه الأمة إلى الهدف ، وأى هدف أحلى من الحرية فى نظر الأمم المستعبدة

ألا إنما حرية العيش غادة منى كل نفس وصلها ووفودها
يضيء دجنات الحياة جبينها وتبدو المعالى حيث أتلع جيدها

أخذ الرصافى يقذف بحممه فى وجه الظالم المتربع على العرش ويهدى باقات عواطفه العطرة لأمته الخاضعة فينعشها ويغذيها ويحفزها. حتى حدثت فى نجد حوادث دامية بين ابن الرشيد حليف السلطان وابن السعود خصيمه فاهتبل السلطان الفرصة وساق على المتخاصمين جيشاً عربيا من العراق ليفك الخصام فى الظاهر وليمين ابن الرشيد على ابن السعود فى الباطن فاشتبك الجيش مع المتخاصمين وكلهم عرب ، فجرت الدماء حتى صبغت رمال الصحراء تحقيقا لرغبة السلطان الذى أراد أن يضعف من قوة العرب بقتل زهرات شبابهم من الحاضرة والبادية ويباعد بين صفوفهم بتقوية البغضاء والعداوة بين أمرائهم وقادة الرأى فيهم فقام الرصافى لهذا الحادث وقعد، برق ورعد، ونظم قصيدة سماها « إيقاظ الرقود » خاطب بها العرب ووضع أمامهم ماأراد السلطان بسوق الحملة العربية على الأمير، العربيين فى قلب الجزيرة العربية

حكومة شمبناجارت وصارت علينا تستبد بما أشارت
فلا أحد أدعته ولا استشارت وكل حكومة ظلمت وجارت
فبشرها بتمزيق الحدود

ولم ينس الرصافى فى هذا الوقت أن يوجه إلى الأميرين المتقاتلين أقسى عبارات اللوم والتعنيف على مالارتكبا من الأعمال التى تتنافى مع مصلحة الأمة العربية ، وأخذ يستعرض ما أصاب الجنود العرب من قتل وفشل فى تلك المعركة المشؤومة وحاشا للرصافى أن ينسى عبد الحميد فى هذا الموقف وهو منبع الآلام الجسام والمصائب الضخام

أقول وليس بعض القول جدا لسلطان تجبر واستبدا
تعدى فى الأمور وما استعدا ألا يا أيها الملك الفدى
ومن لولاه لم تك فى الوجود
أصم عن أن تسوس الملك طرفا أقم ما تشتهى زمراً وعزفا
أطل فكر الرعية خل عرفا سم البلدان مهما شئت خسفا
وأرسل من تشاء إلى اللحود
فدتك الناس من ملك مطاع أبن ما شئت من طرق ابتداع
ولا تخش الاله ولا تراع فهل هذى البلاد سوى ضياع
ملكت، أو العباد سوى عبيد
تنعم فى قصورك غير دار أعاش الناس أم هم فى بوار
فإنك لم تطالب باعتذار وهب أن الممالك فى دمار
أليس بناء (يلدز) بالمشيد

ظل الرصافى على هذه الحال تغلى عواطفه فى صدره بمقاومة الظلم وتتطاير قذائف حقده على الاستبداد والخسف بنظم القصيدة فى بغداد ويرسلها للنشر فى مصر حتى تم الانقلاب العثمانى وسقط عبد الحميد عن العرش فصاح بصوت جهورى

قمنا على الملك الجبار نقرعه بالسيف منصلتا والرمح مهزوزا
حتى تركناه فى هيجاء معضلة ألقت ضراما على الطاغين مأروزا
إنا لنأبى على الطاغى تهضمنا حتى نهوز فى الهيجاء تهوزا
وما كل الموت دون العز نعضنه كضغثنا التمر برنيا وسمريزا
لا عاش من لا يخوض الموت مرتضيا
بقاءه بعصى الذل مكوزا

صاح الرصافى صيحته فى وجه الجبار الهاوى عن العرش والتفت بتغنى بالحرية والعدالة والمساواة ويشيد بذكر الدستور وأبطال الانقلاب غير مفرق بين عنصر وعنصر من مجموع العناصر العثمانية حتى رأى الاتحاديين يبيتون ضد العرب ورأى